المبحث الرابع

الفاصلة القرآنية وعلم المناسبة

تناسب الفاصلة:

إنّ من أهم الخصائص التي تميز القرآن في كل كلام بليغ أنه يجمع بين الوفاء بحق المعنى في أول الألفاظ في أجمل التعابير، وأنه استمر من أوله إلى آخره، وتأتي الفاصلة التي هي جزء من الآية جامعة بين محاسن الصياغة وبلاغة المعنى بإحكام، ولا يجوز أن يقال: إنّ القرآن يختار الكلمة أو الأسلوب لتناسب الفواصل وحده ولا لبلاغة المعنى وحدها. بل يجب أن يقال: إنه يختار ما يختار من ذلك؛ لأنه الأبلغ في موضعه، والأوفق في نسقه[1].

وقال الزركشي: «اعلم من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلابد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً، وإلا يخرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك لكن منه ما يظهر، ومنه يستخرج بالتأمل للبيب»[2].

وقال د. أحمد أبو زيد: «وإنّ الفاصلة القرآنية تأتي متمكنة في موقعها، مستقرة في مكانها، يتعلق معناها بمعنى الآية بحدث لو طُرحت أو غُيّرت لا يختل المعنى وفسد النظم، لأنها لم تكن مجرد حلية لفظية، بل جزء أصيل من البناء المحكم للعبارة، إن هي حجر الزاوية في ذلك البناء»[3].

---

(١) ينظر: التناسب البياني: ٣٦٩.

(٢) البرهان: ٧٨.

(٣) التناسب البياني: ٣٦٩.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[1]، فقدم نكال الآخرة على نكال الأولى، وفيه تقديم المتأخر زمناً. وقد قدمه لأنه أشد وأبقى، وهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة، ولأنه الأنسب للسياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضعه الرئيسي، ولأنه يتسق لفظيّاً مع الإيقاع الموسيقي في الفاصلة بعد اتساقه معنويّاً مع الموضوع[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[3] فقد تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة، وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض، كيف يترل الماء فينبت الزرع، فأمر التاريخ يسمع سماعاً الآية بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، وأمر الزرع يبصرونه إبصاراً فناسب أن تختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقد أشار ونبه الزمخشري إلى ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[4] وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[5]، فقد كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض، وتلك

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٥.

(٢) ينظر: التناسب البياني: ٣٧٠-٣٧١.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٦-٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣.

قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله: (ولكن لا يشعرون)، لأنّ المشاعر في الحواس، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفه وهو الجهل ناسب أن تختتم بالعلم.

قال الزمخشري: «فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ والتي قبلها بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ قلت: لأنّ الوقوف على إنّ المؤمنين على الحق، وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة وأمّا النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض، فأمر دنيوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، لاسيما عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغاير والتناحر والتجارب، فهو كالمحسن المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2] حيث ختمت آية النهار بالبصر، وذلك لأنّ النهار هو ظرف لأعمال الناس، وتصرفاتهم، وأكثر ما يستخدم فيه الإنسان حاسة البصر، وختمت آية الليل بالسمع، لأنّ دوام الليل فيه إعمال حاسة السمع أكثر من إعمال حاسة البصر[3].

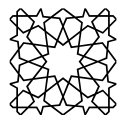

(١) ينظر: الكشاف: ٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٢.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٣٠.